تطور العقلية الاسبانية

فى تقدير تراث الأندلس

للأستاذ محمد عبد الله عنان

فى أوائل سنة ١٩٢٩ ، احتفلت جامعة غرناطة بذكرى الخلافة الأندلسية لمناسبة مضى ألف عام على قيامها [1] فكان أول حادث رسمى من نوعه ينم عن تطور عميق فى تقدير اسبانيا النصرانية لتراث الأندلس المسلمة

وتاريخ الاسلام فى الأندلس مرحلة باهرة فى تاريخ اسبانيا للقوى ، بل أعظم مراحله وأسطعها ، فقد لبث العرب فى اسبانيا زهاء ثمانية قرون أنشأوا فيها أعظم حضارة عرفت فى العصور الوسطى ، وكانت وحدها مدى هذه العصور مورد النور والعرفان لأمم الشمال ؛ وأخرج المسلمون من اسبانيا بعد أحقاب من الكفاح المتواصل ، فتركوا فى اسبانيا طابعهم الخالد ؛ وما زالت آثارهم الباقية تشهد بعظمة عصرهم وحضارتهم ، وما زالت الحياة الاجتماعية الاسبانية تنم فى كثير من نواحيها عن تأثير العرب ورسومهم وتقاليدهم

ولكن اسبانيا النصرانية لم تقنع بمحق الأندلس المسلمة ، واستعادة آخر بقعة للاسلام فى اسبانيا ، بل رأت غداة ظفرها أن تطارد الاسلام بكل ما وسعت ، وأن تمحو كل رسومه وآثاره من صفحة حياتها ، وأن تدفن ذلك الماضى المجيد إلى الأبد ، وأن تعتبره محنة قومية نزلت بها ، وأن تمحوه من صحف تاريخها القومى ؛ وتأثر التفكير الاسبانى بأهواء السياسة المتعصبة ، فأشبع بهذه الروح المجحفة ؛ ولبث الأدب الاسبانى عصورا يشيع بلعناته المتواصلة عصر الاسلام وتراثه ، وكل ذكرياته ؛ ولم ينج التاريخ من هذه النزعة المغرضة ، فطغى التعصب على المرحلة الاسلامية من تاريخ اسبانيا القومى ؛ وكتب المؤرخون الأسبان تاريخ العرب فى اسبانيا بروح عميق من التحامل ، وجعلوا جل اعتمادهم على الروايات النصرانية القديمة التى تفيض بمختلف الأكاذيب والتهم ، ولم يفكروا فى مراجعة المصادر الاسلامية والانتفاع بها ؛ ذلك أن اسبانيا النصرانية أصدرت منذ غداة ظفرها حكمها على المغلوب ، ولم ترد بعد ذلك أن تسمع صوتاً للأندلس الذاهبة ، أو أن تراجع ذلك التراث الذى تعتبره رجساً ، وترى فيه عنوان عصور مشئومة ، مليئة بالمحن القومية

وبهذه الروح كتب أكابر المؤرخين الأسبان تاريخ اسبانيا ، فكتب ماريانا فى عصر شارلكان تاريخ اسبانيا العام ، وخصص منه مجلدين كبيرين لتاريخ الأندلس ، ولكنه كان متحيزا متحاملاً يغدق الطاعن والتهم على العرب وعصور الاسلام ؛ وحذا حذوه من جاء بعده من المؤرخين ؛ وطبعت مؤلفاتهم جميعاً بهذا الطابع المغرض ؛ وكانت السياسة الاسبانية تحرص دائماً على حجب آثار العصر الاسلامى ، وتخفيها عن كل باحث ومتطلع ، كأنما كانت تخشى أن تؤثر روح التفكير الاسلامى فى تفكير اسبانيا النصرانية ، وهى لم تدخر وسعاً فى مطاردة هذا الروح وقتله ؛ ولبثت الآثار الاسلامية عصوراً مقبورة فى أقبية الأسكوريال المظلمة ، وكانت حتى أواخر القرن السابع عشر تبلغ زهاء عشرة آلاف مجلد جمع معظمها أيام سقوط غرناطة ، وضمت اليها بعد ذلك نحو ثلاثة آلاف مجلد كانت للسلطان زيدان السعدى ملك مراكش ؛ وكانت مشحونة فى مركب مغربى لتنقل إلى بعض ثغور المغرب خوفاً على ضياعها أثناء الفتنة ، فأسرتها بعض المراكب الاسبانية وحملت شحنتها إلى اسبانيا [1] ؛ وفى أواخر القرن السابع عشر أصابت هذه البقية الباقية من تراث الأندلس محنة ألمية ، إذ شبت النار فى الأسكوريال والتهمت معظم هذا الكنز الفريد ، ولم ينقذ منه سوى ألفين . عندئذ استفاقت الحكومة الاسبانية من سباتها ؛ وحررت ذهنها بعض الشىء من ذلك التعصب العميق الذى صرفها عصوراً طويلة عن العناية بهذا التراث ، واستدعت من رومة حبرا شرقياً وعلامة لغوياً كبيراً هو ميشيل الغزيرى اللبنانى الذى يعرف فى الغرب باسم

(١) اتخذ عبد الرحمن الناصر سمة الخلافة فى سنة ٣١٧ هـ (٩٢٩ م) وظلت فى قرطبة خلافة أموية ، إلى جانب خلافة بغداد فى المشرق

(١) وتم هذا الحادث فى أواخر عهد فيليب الثالث ملك أسبانيا حوالى سنة ١٦٢٠ م

(كازيرى) Casiri ، وعهدت اليه بدرس الآثار العربية ووضع فهرس جامع لها ؛ فلبث الغزيرى أعواماً طويلة يدرس وينقب فى تلك المخطوطات حتى أتم المهمة ، وأخرج فى سنة ١٧٦٠ باللاتينية فهرسه الجامع بعنوان « المكتبة العربية الاسبانية فى الأسكوريال » Bibliotheca Arabico-Hispana Escurialensis وصدر كازيرى معجمه بمقدمة طويلة شرح فيها قيمة المخطوطات العربية وأهميتها ، ونقل فى فهرسه نبذا كثيرة من بعض الآثار الهامة ؛ فآثار ظهور هذا الفهرس الجامع لأول مرة اهتماماً كبيراً فى دوائر البحث والتفكير ، ولفت نظر المؤرخين الاسبان إلى تلك الناحية الهامة من تاريخ اسبانيا القوى ، وإلى تلك المراجع النفيسة التى تلقى أعظم ضوء على تاريخ الأندلس وأحوال المجتمع الاسلامى ؛ وعنى طائفة من الباحثين فى أواخر القرن الثامن عشر مثل أندريس وماسدي ببحث المصادر العربية والانتفاع بها ، والاقتباس منها ؛ وأخرج أندريس كتابه عن (أصول الأدب) وأخرج ماسدى مؤلفه الجامع عن تاريخ اسبانيا والحضارة الاسبانية Historia Critica de Espana y de la Cultura espanola وفيه نبذ شائقة عن المجتمع الاسلامى ونواحى التفكير الاسلامية مستمدة من المراجع العربية ؛ وهكذا بدأ تطور الروح الاسبانية فى تقدير التراث الاسلامى ، وظهر صوت الأندلس المسلمة لأول مرة فى التواريخ العامة والخاصة

على أن هذا التطور المحمود من التحامل والتعصب إلى جانب الروية والانصاف لم يقف عند هذا الحد ، ففى أوائل القرن التاسع عشر عمد المؤرخ يوسف كوندى أمين مكتبة أكاديمية مدريد إلى دراسة المراجع العربية فى الاسكوريال دراسة مستفيضة ورأى أن يكتب تاريخ أسبانيا المسلمة بصورة جديدة هى الصورة التى تقدمها إلينا المراجع العربية ، أو بعبارة أخرى رأى أن يكتب تاريخ الأندلس كما يمرضه تراثها العربى ، وكانت نتيجة هذه الدراسة كتابه الشهير « تاريخ دولة العرب فى أسبانيا » Historia de la Dominacion de Los Arabos en Espana الذى صدر الجزء الأول منه سنة ١٨١٠ ؛ وتوفى كوندى فى نفس العام ، فنشر الجزءان الباقيان من مخطوطاته فى العام التالى ؛ وليس مؤلف كوندى قوياً من الناحية النقدية ، لأن مؤلفه ينقل مختلف الروايات العربية دون تمحيص ، ولأنه يقع فى كثير من الأخطاء التاريخية التى ترجع فى الغالب إلى عدم الدقة فى النقل ؛ ومع ذلك فانه يمتاز بالصراحة الجمة حتى أن كوندى يذهب فى كثير من المواطن إلى إصدار أشد الأحكام على أمته ومواطنيه خصوصاً فى الحوادث التى اقترنت بسقوط غرناطة ، واضطهاد الأسبان للعرب ومطاردتهم وإرغامهم على التنصير ، ثم إخراجهم بعد ذلك من أوطان آبائهم وأجدادهم فى غمر من الفظائع والدماء ؛ وأهمية مؤلف كوندى فى أنه يعرض للغرب لأول مرة أقوال الرواية العربية مستمدة من مصادرها الأصيلة ، ومنها تعرف وجهة النظر الأندلسية فى كثير من الحوادث والشؤون

وكان صدور مؤلف كوندى حادثاً فريداً فى كتابة التاريخ الأسبانى ، وكان أول مؤلف من نوعه يسجل كلمة الأندلس فى المرحلة التى قطعتها من تاريخ اسبانيا القوى ، ويسجل فى نفس الوقت بدء عهد جديد من حرية البحث والتقدير ؛ ومن الغريب أن كتاب كوندى صدر فى نفس الوقت الذ صدر فيه أثر تاريخى آخر كان لصدوره أعظم وقع فى اسبانيا وفى أوربا ، وهو كتاب الدون انتونيو لورنتى عن تاريخ محاكم التحقيق (التفتيش) الأسبانية ، وعن نظمها واجراءاتها الدموية ، وفيه يورد مؤلفه طائفة عظيمة من الوثائق الرسمية التى تكشف عن فظائع هذه المحاكم الشائنة ، وخصوصاً فى مطاردتها للعرب والعرب المتنصرين ، ويورد فى نفس الوقت طائفة كبيرة من القضايا والمحاكمات الخاصة بالعرب المتنصرين مستمدة من وثائقها الأصلية ؛ وكان كتاب لورنتى فتحاً جديداً فى هذه الناحية من تاريخ العرب المتنصرين . وكان لصدوره وقع عظيم فى أوربا ، خصوصاً وأن مؤلفه من أكابر رجال الدين والكنيسة ، وقد لبث أعواماً طويلة سكرتيراً عاماً لديوان التحقيق (التفتيش) واستطاع أن يستخرج وثائقه من محفوظات الديوان الرسمية ذاتها

وفى أواسط القرن التاسع عشر عنى العلامة المستشرق الأسبانى دون باسكوال دى جاينجوس بدراسة المصادر العربية فى تاريخ الأندلس ، وقام بترجمة القسم الأول من كتاب « نفح الطيب » للمقرى إلى الانكليزية مع بعض التصرف وسماه « تاريخ الدول الاسلامية فى اسبانيا » History of Mohamedan Dynasties in

Spain ؛ وظهرت هذه الترجمة فى لندن سنة ١٨٤٠ فى مجلدين كبيرين مقرونة بملاحظات ومقارنات نقدية قيمة ؛ ولم تمض أعوام قلائل على ذلك حتى صدرت فى ليدن ترجمة فرنسية لهذا القسم الأول من كتاب المقرى بقلم المستشرقين دوزى ودوجا تحت عنوان « مختارات فى تاريخ وآداب العرب فى اسبانيا » Analectes sur l'Histoire et la littérature des Arabes d'Espagne (سنة ١٨٥٥ ـ ١٨٦١)

وهكذا وقفت اسبانيا ، ووقف الغرب ، بعد عصور طويلة من النسيان والتحامل على وجهة النظر الاسلامية فى التاريخ الأندلسى ، وسقط ذلك الحجاب الكثيف الذى ضربته السياسة الأسبانية مدى ثلاثة قرون على تراث الأندلس وآدابها ، وتطورت فكرة التاريخ الأسبانى ومادته ، وأدرك المؤرخون المحدثون أهمية المرحلة الاسلامية فى تاريخ اسبانيا القومى ، وعدلوا كثيراً من الآراء والأحكام المجحفة التى أصدرها المؤرخون القدماء نزولا على مؤثرات الجهل والتعصب القومى والدينى والسياسى

ونرى فى أواخر القرن التاسع عشر جماعة من أعلام المستشرقين الأسبان يبذلون جهداً عظيما فى نشر مجموعة كبيرة من المصادر الأندلسية الجليلة التى تحتويها أروقة الأسكوريال ، باسم المكتبة الأندلسية ، وهى مجموعة نفيسة فى عشرة مجلدات ، تحتوى على عدة كتب لابن بشكوال ، وابن الآبار ، والضبى ، وابن الفرضى ، وأبو بكر الاشبيلى ، وتعليقات وفهارس مفيدة . وقد ظهرت المجموعة بين سنتى ١٨٨٥ و ١٨٩٤ فى مدريد وسرقسطة ، وكان الجهد الذى بذل فى إخراجها تحية جديدة من اسبانيا الجديدة لتراث العرب والاسلام فى الأندلس

وأخيراً توجت تلك الجهود الحرة الموفقة لبحث الصلات والدلائل القومية بروح الانصاف والنزاهة ، بقيام جلسة غرناطة بالاحتفال بالذكرى الألفية للخلافة الأندلسية وعصرها الباهر ، وهى خطوة كان لها أعظم وقع فى اسبانيا وفى العالم الاسلامى

وهكذا يتبوأ تاريخ الأندلس وتراث الاسلام فى اسبانيا مكانته الحقة فى التاريخ القومى ، وفى الآداب التاريخية الغربية ، بعد عصور طويلة من التعصب والتحامل والنسيان

محمد عبد الله عنان

بين عالمين

نظام الطلاق فى الاسلام

للأستاذ أحمد محمد شاكر

منذ بضعة أشهر أخرجت كتابى (نظام الطلاق فى الاسلام) فتقبله العلماء الأعلام فى مصر وفى سائر الأقطار بقبول حسن والحمد لله ، وأكثروا من الثناء عليه وعلى مؤلفه ، وجاءتنى كتب متواترة من كبار علماء الاسلام فى الحجاز والهند والعراق والشام وغيرها ، ومن كبار المستشرقين فى أقطار أخرى ، ولا أرانى أهلاً لكل ما أثنوا به علىّ ، وإنما هو حسن الظن منهم ، وقد أعجزنى أن أوفيهم حقهم من الشكر على هذا الفضل الجمّ ، وأسأل الله أن يجزل لهم المثوبة على فضلهم

وفى بعض ما جاءنى من الكتب أبحاث قيمة من النقد العالى المبنى على الحجة والبرهان ، مما يصلح أن يكون مثالاً يحتذى للباحثين المجتهدين ، فى دقة النظر ، وعلو الفكر ، وأدب القول ، والتسامى عن العصبية والهوى ، والتزام ما ينصره الدليل الصحيح ؛ وهى الخصال التى نرجو أن يسير على نهجها كل عالم مفيد ، وكل طالب مستفيد ، وخصوصاً فى علوم الدين . وهى الخصال التى جاهد أسلافنا فى سبيل حمل الناس على الأخذ بها واتباعها ، ثم تبعناهم من بعدهم ، فجاهد اخوانى وجاهدت معهم فى سبيل ذلك جهادا كثيراً ، منذ نيف وعشرين سنة ، ولا نزال — والحمد لله — نسير على هذا النهج القويم ، والصراط المستقيم

ومما يجب علىّ ، إحقاقا للحق ، واتباعا لسبيل الهدى ، أن أفكر فيما ورد على كتابى من اعتراض ونقد ، وأعيد النظر فيما اخترتُ ورأيتُ ، وأكشف عن حجة خصمى وعن حجتى ، لى وللناظرين : فاما انتصر قول خصمى ورجعتُ عن قولى ، وإما انتصرتُ لقولى وزدته بياناً وتأييداً ، لا أبالى أى ذينك كان ، وإنما أنا طالب علم ، فأى قول أو رأى نصره عندى الدليل فانه العلم الذى أطلبه وأسعى اليه ، لا أبتغى به بدلاً